ولست أدرى لماذا اخترت هـذا اللون بعينه من هذه الألوان الأدبية التى يقدمها إلينا فولتير، ولـكنى أعلم أنى كنت أسأل نفسى وأنا أقرأ قصص فولتير عما يمكن أن يكون حظ هذا الرجل العظيم من التحليل النفسى ومن تعليـل ما يحدث أشخاصه من الأحداث وما يعرض لهم من الخطوب . وكنت أحاول أن أضعه فى طبقه من طبقات الـكتاب هذه التى نعتمدها فى العصر الحديث أساساً للتقسيم والتصنيف . فمن الـكتّاب من يستغرق همه كله فى تحليل دقائق النفس حين تفـكر وحين تشعر وحين تعمل . ومن الـكتّاب من يفرغ همه فى تحليل الصلات بين الناس فيتجه إلى الناحية الاجتماعية من الحياة الانسانية . ومنهم من يعنى بغير هاتين الناحيتين من نواحى الفن الذى يصـدر عنه الـكتاب ويقصدون إليه فيما يكتبون .

كنت إذاً أحاول أن أضع فولتـير القاص فى طبقة من هذه الطبقات دون أن أبلغ من ذلك ما أريد ، فهو لا ينحاز إلى طبقة دون طبقة ولا يضاف إلى فريق دون فريق ، ولعله أن يشارك فى خصائص هذه الطبقات جميعاً . والشئ المحقق هو أنه لم يفكر فى شئ من ذلك . ومن يدرى ! لعل معاصريه لم يكونوا يفـكرون فى شئ من ذلك ، وإنما كانوا يصدرون عن طبائع فى غير تكلف ولا تصنع يرسم لهم الفن نفسـه مذاهبهم فى القول وطرائقهم فى التصوير والتعبير .

على أن هناك حقيقة واضحة معروفة ، وهى أن القصص عند فولتير لم يكن غاية تطلب لنفسها وإنما كان وسيلة يبتغيها الـكاتب ليصل بها إلى غرض من الأغراض الفلسفية ، سواء أكان هذا الغرض متصلا بما بعد الطبيعة أو بالنظام السياسى أو بالنظام الاجتماعى أو بالنظام الدينى أو بكل هذه الأشياء جميعاً .

وإذا كان القصص نفسه وسيلة لا غاية ، فمن الطبيعى أن يكون الأشخاص الذين تجرى على أيديهم أحداث هذا القصص وسائل لا غايات . فإذا عرض علينا فولتير شخصاً من الأشخاص الذين يعملون أو يتأثرون فى قصصه فطبيعة هذا الشخص لا تعنيه ، ولا تعنيه الخصائص التى تأتلف منها هذه الطبيعة ، وإنما الذى يعنيه هو ما يصدر عن هذا الشخص من قول أو عمل وما يلم بهذا الشخص من حدث أو خطب ، وما يكون لهذه الأقوال والأعمال والأحداث والخطوب من أثر فى حياة الناس .

ومن أجل هذا كانت الأشخاص فى قصص ڤولتير وسائل من جهة ورموزاً من جهة أخرى . رموزاً لهذه الأغراض التى كان يسعى إليها ولهذه الآراء التى كان يريد أن يثبتها أو أن ينفيها . ومن أجل هذا أيضاً كان ڤولتير يتخذ لبعض قصصه عنوانين ، أحدهما الشخص الذى اتخذه رمزاً ، والآخر الفكرة التى أراد أن يرمز إليها . فقصة « كانديد » تسمى كانديد أو التفاؤل ، وقصة « زاديج » تسمى زاديج أو القدر ، وعلى هذا النحو .

أشخاص ڤولتير إذاً ليسوا أفراداً من الناس يعملون كما نعمل ويشعرون كما نشعر ويحسون كما نحس ويتأثرون كما نتأثر ، وإنما هم أشخاص قد خلقهم خيال ڤولتير وعقله خلقاً . وقد استمدهم هذا العقل وذلك الخيال من المعانى التى قصد إليها وأراد تصويرها أكثر مما استمدهم من الحياة الواقعة التى يراها كل إنسان والتى يستطيع كل إنسان أن يلاحظها من قرب وأن يتناولها بالنقد والتحليل والتعليل . ولعل من الخصال التى تفوق فيها ڤولتير تفوقاً ظاهراً انتهى به إلى براعة فنية لا يدانيه فيها كاتب فرنسى آخر أنه لا يحفل كثيراً بالحياة الواقعة ولا يقف عندها إلا بمقدار . فهو يأخذ منا ما يحتاج إليه ويضيف إليها ما يحتاج إليه أيضاً ، مزدرياً هذا المنطق الطبيعى الذى نفكر به ونتخذه مقياساً لتصورنا للأشياء وحكمنا عليها . فهو لا يحفل بالزمان ولا بالمكان ، وهو من أجل ذلك لا يحفل بالتاريخ ولا بالجغرافيا ، وهو لا يحفل بالطبيعة التى يمكن أن تلاحظ ولا بالخرافات التى ليس إلى ملاحظتها من سبيل . وهو لا يحفل بما يوجد بيننا بالفعل ولا بما ليس له وجود . وإنما يأخذ من هذا كله ما يريد ، ويرتب هذا كله كما يريد ، ويقدم لنا منه مزاجاً رائعاً نعجب به أشد الإعجاب ولا نستطيع أن ننكر منه شيئاً ؛ لأن إنكارنا لا يؤثر فى الفكرة الأساسية التى أراد أن يعرضها علينا . فأميرة بابل مثلا تعيش فى أقدم العصور التاريخية بل تعيش فى أقدم العصور الانسانية قبل أن يوجد التاريخ ، وهى مع ذلك تطوف فى أقطار الأرض وتتخذ للتنقل وسائل منها ما يلائم الأساطير ، ومنها ما يلائم العصر الذى كان ڤولتير يعيش فيه . وهى تزور مدناً لم تنشأ إلا فى عصور متأخرة جداً وتشهد أجيالا من الناس لم يوجدوا إلا بعد أن تقدمت الحضارة الانسانية حتى انتهت إلى الطور الذى انتهت إليه فى القرن الثامن عشر الفرنسى .

هذه الأميرة تعيش فى مدينة بابل التى وصفتها الأساطير ، وهى تعيش قبل سيمراميس بقرون طويلة . وقد أراد أبوها الملك أن يبغى لها زوجاً فقرر أن يجرى مسابقة بين الملوك قوامها أن يشد المتسابقون قوس نمروذ وهى قوس لا يتاح لأوساط الناس ولا للمتفوقين منهم فى القوة أن يشدوها . فأيهم قدر على أن يشد هذه القوس فعليه بعد ذلك أن يقهر أسداً لم تعرف الدنيا مثله قوة وبأساً وعنفاً . فاذا قهر هذا الأسد فعليه بعد ذلك أن يقدم إلى الأميرة هدية نادرة لم يعرف العالم مثلها قط . وقد أقبل ملوك ثلاثة للاشتراك فى هذه المسابقة ، أحدهم فرعون جاء يركب الثور أبيس وهو يقدم إلى الأميرة هدايا من تماسيح النيل وجرذان الدلتا . والثانى ملك الهند جاء يركب فيلا هائلا تتبعه فيلة كثيرة تحمل من طُرف الهند ما عرف الناس وما لم يعرفوا . والثالث ملك السيتيين من أهل البادية فى شرق أوربا وجنوبها جاء ومعه أصحابه يمتطون أجود الخيل وأعرقها فى النسب ، ويحملون من طرف باديتهم الشئ الكثير . وقد احتفلت بابل بمقدم هؤلاء الملوك احتفالا رائعاً واحتفت بهم احتفاء عظيما . حتى إذا كان اليوم المشهود اجتمع النـاس ليشهدوا هذه المسابقة . وقد اجتمع منهم فى المدرج أكثر من نصف مليون . وجلس الملك فى مقصورته ومن حوله وزراؤه ورجال قصره ، وجلست الأميرة فى مقصورتها ومن حولها وصائفها ، وجلس كل ملك من الملوك الثلاثة فى المقصورة التى أعدت له ، ومع كل واحد منهم حاشيته ، ودار على النظارة جيش ظريف قوامه عشرون ألفاً من العذارى الحسان يطوّفن عليهم بألوان الفاكهة والنقل والشراب . ثم لم يكد مؤذن الملك يؤذن بافتتاح المسابقة حتى رأى النظارة منظراً عجباً : رأوا فتى يُقبل من بعيد يتبعه خادمه ، وقد وقف على كتف الفتى طائر جميل رائع المنظر ، وقد ركب الفتى حيواناً غريباً سريعاً رشيقاً خفيف الحركة يتوسط رأسه قرن وحيد . وقد انتهى الفتى إلى المدرج يلحظه الملوك والنظارة وتلحظه الأميرة ووصائفها خاصة ، ومضى فى تواضع حتى انتهى إلى مجلس من المدرج فجلس كغيره من الناس يقوم خادمه من ورائه ويقف على كتفه طائره الجميل .

وقد ابتدئت المسابقة ، فتقدم فرعون ليشد القوس فلم يبلغ من شدها شيئاً ونصح له كبير كهنته بألا يمضى فى هذه المسابقة التى لا تلائم الجلالة المصرية وحَسْبُه ما يقدم من الهـدايا ، وحَسْبُه أنه صاحب ملك مصر . ولم يكن ملك الهند

أحسن منه حظًّا . وحاول ملك السيتيين أن يشد القوس فكاد يبلغ من شدها شيئاً يسيراً ولكن قوته لم تطاوعه . وإذا الفتى يثب من مكانه ويهبط إلى الميدان مسرعاً ويتناول القوس فى أدب ويشدها فى رشاقة ويرسل منها إلى مقصورة الأميرة كتاباً تقرؤه الأميرة ، فإذا هو شعر جميل يتغنى بجمالها البارع . ثم يخرج الأسد وقد نكل عن لقائه فرعون وملك الهند ، ولكن ملك السيتيين أقدم على هذا الصراع الهائل ، وكاد يصرع الأسد ولكن الحظ خانه فهمّ الأسد أن يبطش به لولا أن هذا الفتى يثب مسرعاً ويهوى إلى الأسد بضربة تقدّ عنقه قدًّا

وقد أخذ الفتى رأس الأسد فدفعه إلى خادمه ، وغاب الخادم لحظة ثم عاد وقد غسل عن الرأس ما كان عليه من دم وانتزع نيوبه وأقر مكانها قطعاً من الجوهر لم ير الناس مثلها قط . وأخذ الفتى هذا الرأس من خادمه ودفعه إلى طائره الجميل وكلفه أن يحمله إلى الأميرة ، والطائر يسعى فى الجو سعياً رفيقاً رشيقاً حتى يبلغ مقصورة الأميرة فيضع الرأس بين يديها ويقدم إليها تحية تملأ الناظرين فتنة وإعجاباً . وقد فُتن الملوك والنظارة بهذا الفتى ووقع حبه فى قلب الأميرة ، وهمّ عظيم بابل أن يحتفى به ، ولكن رسولا يقبل فيلقى فى أذن الفتى كلمات ، وإذا الفتى يكلف طائره الجميل أن يبقى مع الأميرة ، ثم يتحول إلى حيوانه الغريب فيركبه ويعود به من حيث أتى . ويجدّ البابليون فى اللحاق به فلا يبلغونه وقد امتلأ قلب الأميرة حبًّا وحزناً ، وامتلأت قلوب الملوك غيظاً وحنقاً ، واختلط الأمر على عظيم بابل ، فهو لم يجد لابنته زوجاً ، وهو مضطر أن يرجع إلى الآلهة يستشيرهم فيما يصنع . والمهم هو أن الأميرة قد كلِفتْ بالفتى ، وأن هذا الحب قد أرّقها ، فهى تحدث نفسها أثناء الليل والطائر قائم إلى جانب السرير فما يروع الفتاة إلا صوت هذا الطائر يسليها ويعزيها ويواسيها فى لغة بابلية رائعة . فالطائر إذاً يتكلم لغة الناس ، وهو يقص عليها قصصه ، فهو ما زال فى أول الشباب ، لم يبلغ من السن إلا سبعة وعشرين ألفاً وبضع مئات من السنين . وهو يحدثها عن هذا الفتى وعن موطنه فى أقصى الهند ، وقد أشار عليها أن تلحق به ، وأشار الوحى على أبيها أن يكلفها الطواف فى أقطار الأرض .

وما أريد أن ألخص القصة وإنما يكفى أن أقول إن الفتاة ذهبت إلى البصرة ثم إلى جنوب البلاد العربية ثم إلى الهند ثم إلى الصين ثم إلى أوربا على اختلاف

أقطارها تطلب هواها فى كل هذه البلاد ، وهى لا تبلغ بلداً إلا أنبئت بأن الفتى قد رحل منه إلى بلد آخر ، ثم يلتقيان ذات يوم أو ذات ليلة فى باريس كما سنرى بعد حين .

وفى إلمام الفتى بأقطار الأرض وفى إلمام الفتاة بعده بهذه الأقطار عَرْضٌ لما يريد فولتير أن يعرض من شؤون الأمم والشعوب ، يجدّ حيناً ويهزل حينا ، يصور التاريخ مرة ويخترع الحوادث مرة أخرى ، وينقد نظام السياسة والدين والاجتماع دائماً ، ويلم بالنقد الأدبى بين حين وحين .

وليس فولتير فى قصة كانديد بأقل ازدراء للتاريخ والجغرافيا والحقائق المادية الواقعة منه فى هذه القصة التى أشرت إليها آنفاً . فالمهم عنده إذاً ليس اتساق القصة طبقاً للمألوف من حقائق الحياة ولا طبقاً للمألوف من هذا الخيال الذى لا يريد أن يمعن فى الغرابة ولا أن يغرق فى الاختراع ، وإنما يصور الوقائع للناس تصويراً تألفه عقولهم وتطمئن إليه أذواقهم على نحو ما عودهم القصاص فى العصر الحديث على أقل تقدير . ففولتر إذاً يذهب بقصصه مذهب الشرقيين فى ألف ليلة وليلة وفى كليلة ودمنة ، وفى هذا القصص الذى يمتلئ بالأعاجيب ويفعم بالخوارق ، والذى يكثر فيه الجن وتتكلم فيه الطير ، والذى يتخذ هذا كله مع ذلك وسيلة إلى النقد والإصلاح وتصوير الحياة الاجتماعية المعاصرة بما فيها من خير وشر . فلا غرابة إذاً فى أن تكون عناية فولتير بحقائق الأشخاص فى قصصه ضئيلة لا تكاد تكون شيئاً ذا خطر .

ومع ذلك فهؤلاء الأشخاص يختلفون فى حظهم من عناية فولتير اختلافا شديداً ، فمنهم الأشخاص الأساسيون والأشخاص الإضافيون ، إن صح هذا التعبير ، ومنهم الرجال والنساء ، ومنهم الشباب والكهول والشيوخ . ولكل أولئك خصال يتمايزون بها فيما بينهم . فأين تقع المرأة من هؤلاء الأشخاص جميعاً فى قصص فولتير ؟

هذا هو السؤال الذى كنت ألقيه على نفسى وأنا أقرأ قصصه الطوال وأقاصيصه القصار . ويخيل إلىّ أن فى الوقوف عند هذه النماذج التى يقدمها لنا فولتير من النساء والفتيات فى قصصه شيئاً لا أقول من الفائدة العلمية الخطيرة ، ولا أقول من المتعة الأدبية الرائعة ، ولكن أقول من الفكاهة والغناء اللذين قد يرغبان بعض الباحثين المتعمقين فى البحث فى أن يحصوا ويستقصوا ، وفى أن

يحللوا ويعللوا ، وفى أن يوافقوا ويفارقوا ، لعلهم أن يخرجوا لنا من هذا كله كتاباً قيما يشتمل على صور رائعة فى الفن والأدب .

فقصة واحدة مثلا من قصص ڤولتير وهى قصة زاديج تعرض علينا صوراً من المرأة مختلفة أشد الاختلاف ، متفقة مع ذلك أشد الاتفاق . فقد همّ زاديج وهو فتى حازم حصيف قد منح طبيعة خصبة وبصيرة نافذة . وذكاء بعيداً وثقافة واسعة ، همّ زاديج أن يتزوج ، فخطب فتاة أحبها كل الحب ، وفتنت به كل الفتون ، وهى سمير . وقد خرج ذات يوم معها يتروضان فى ظاهر المدينة ، وكان لها عاشق من الأمراء همّ أن يخطفها فأبلى زاديج فى الدفاع عنها بلاء حسنا حتى استنقذها ، ولكن سهماً أصابه قريباً من إحدى عينيه . فلما أيأس الأطباء سمير من شفائه صدّت عنه ، وقالت إنها لا تحب العور . ثم تسلّى عنها زاديج وتزوج من فتاة أخرى فُتنت به أشد الفتنة وكونت لنفسها فى الحب رأيا صارما حازما . وأقبلت ذات يوم على زوجها ساخطة أشد السخط . فلما سألها عن ذلك أنبأته بأنها ذهبت تعزى إحدى صديقاتها عن موت زوجها ، وكانت هذه الصديقة مشغوفة بزوجها قد نذرت الوفاء لحبه مادام الجدول المجاور لقبره يمضى فى مجراه ، وقد أقامت على قبره لاتريد أن تفارقه . ولكن صاحبتنا رأتها تصنع شيئاً عجيباً ، رأتها تحول الجدول عن مجراه لتتخلص من هذا النذر الثقيل .

وقد ارتاب زاديج بقدرة المرأة على الوفاء وبسخط امرأته على صديقتها ، فاحتال مع صاحب له وفىّ ليعلم علم امرأته ، فأظهر المرض وتكلف الموت ودفن فى حديقة الدار ، وأقبل صاحبه على الأرملة يواسيها فكان الحديث حزيناً أول الأمر ثم جعل يرق شيئاً فشيئاً ويعذب قليلا قليلا ، حتى انتهى إلى ما يشبه الحب . ثم أظهر الصديق أن نوبة شديدة من المرض قد نابته ، فتعطف عليه الأرملة وتريد أن تطبّ له ، ولكنه ينبئها بأن الطب له مستحيل ، فليس إلى علاجه من سبيل إلا أن يوضع على موضع الطحال منه أنف مجدوع . فتشكّ غير قليل ثم تقول لنفسها : وأى بأس على زوجى الفقيد إن لقى الآلهة بأنفه كاملا أو منقوصاً ! ثم تهبط إلى القبر وفى يدها حديدة تريد أن تجدع بها أنف زوجها الفقيد لتشفى به طحال عاشقها الجديد ، فيهبّ زاديج وقد تبين أن زوجه التى همت أن تجدع أنفه أشد غدراً من تلك التى لم تستطع صبراً على ما نذرت من الوفاء .

فهؤلاء نساء ثلاث يعرضهن علينا ڤولتير فى الفصلين الأولين من هذه

القصة : إحداهن ضحت بالحب لأنها لا تطيق عشرة العور ، والأخرى همّت أن تحول الجدول عن مجراه لأنها لم تستطع صبراً عن الرجال ، والثالثة همت أن تجدع أنف فقيدها ولما يمض على موته إلا أقصر وقت لأنها وجدت عشيقاً جديداً .

وقد استيأس زاديج من حب النساء وذهب فى حياته مذاهب مختلفة لم يجن منها كلها إلا الشر . همّ أن يعيش عيشة الأغنياء فوشى به فى القصر ، وهمّ أن يعيش عيشة العلماء فوشى به عند رجال الدين وتعرض للمحنة المنكرة ، ثم استبانت براءته بعد خطوب ، فاختاره الملك لنفسه وزيراً . ولم تكن وزارته أقل شراً من غيرها من ألوان الحياة التى بلاها ؛ فقد كثر الطالبون وكثر الحاسدون ، وكثر الماكرون ، وثاب النساء إليه من كل وجه يلححن عليه بالإغراء حيناً والإطماع حيناً آخر ، وهو يمتنع ويرتفع ولكنه وقع فى شرك الملكة ووقعت الملكة فى شركه ، ونبّه الملك إلى الأمر فهمّ أن يقتل العاشقين ، وإن لم يصارح أحدهما صاحبه بعشق أو غرام . وقد أتيح للعاشقين من ينجيهما من هذا الكيد . فأما زاديج فمضى نحو مصر ، وأما الملكة استارتيه فأخفيت فى بابل نفسها . وقد طوّف زاديج بالآفاق وخضع لمحن كثيرة ، ولكنه لقى فى هذه المحن امرأتين أخريين ، فأما إحداهما فجرّت عليه شراً كثيراً ، وأما الأخرى فجرت له خيراً كثيراً . أولاهما لقيها عند الحدود المصرية تصيح وتستغيث لأن رفيقها كان يلح عليها بالضرب والعذاب ، فأسرع زاديج لمعونتها وكان الشر بينه وبين ذلك الرفيق فقتله زاديج ، وإذا المرأة التى كانت تستعينه وتستغيث به قد أصبحت له عدواً تلعنه وتستعدى عليه ، وقد أقبل المصريون فأخذوه وحاكموه ، فلما تبينوا أنه لم يقتل إلا دفاعاً عن نفسه أبقوا على حياته ولكنهم باعوه من تاجر عربى كان يقيم بينهم . وهذه المرأة التى استعانت واستغاثت أول الأمر ، ثم لعنت واستعدت آخر الأمر لم تلبث أن ترى قوماً من أهل بابل قد أقبلوا يجدّون ، فلما رأوها لم يشكوا فى أنها الملكة الهاربة فاقتادوها إلى بابل ، وهناك جعلت تمكر وتكيد حتى استأثرت بعقل الملك ، ومازالت به حتى انتهى إلى الجنون .

أما المرأة الثانية فعربية جميلة مات عنها زوجها ، وكان العرب قد ورثوا عن الهند أن تحرق المرأة نفسها لتلحق بزوجها الفقيد ، ولكن زاديج مازال بالمرأة حتى صرفها عن هذا الإثم وحبب إليها الحياة دون أن يحب هو الحياة ودون أن يحب هذه المرأة لأنه لم يكن يحب إلا الملكة استارتيه . ومع ذلك

فقد غضب الكهان على راديج وقضوا عليه بالموت ، ولكن المرأة العربية عرفت له الصنيعة وأزمعت إنقاده ، فما زالت تمكر بالكهان واحداً واحداً ، تطمعهم فى نفسها ولا تتقاضاهم على ذلك إلا براءة هذا العبد . فلما ظفرت بهذه البراءة منهم منفردين ضربت لهم جميعاً موعداً واحداً ، فذهبوا إليها وكلهم مستيقن أنها ستخلص له ، ولكنهم التقوا جميعاً عندها ، فعادوا بالخزى ونجا العبد زاديج بنفسه وما كاد ينجو .

وما زال يطوّف فى الأرض فى الهند وفى سيلان وفى البصرة وفى الشام ، وتعرض له الخطوب الكثيرة حتى لقى فيما لقى من الناس جماعة من النساء يبحثن فى مرج من المروج عن حيوان غريب ، وهن رائعات الحسن بارعات الجمال ، فلما سألهن عن أمرهن علم أنهن إماء لصاحب هذا القصر العظيم ، وأن سيدهن مريض ، وقد وصف الطبيب له هذا الحيوان الخرافى الغريب على أن تجده امرأة وعلى أن يطبخ له فى ماء الورد ، فأرسل إماءه للبحث عنه ووعد أيتهن ظفرت به أن تكون له زوجا ، فهن مغرقات فى البحث متهالكات فى إرضاء سيدهن ، إلا واحدة قد انتحت ناحية وجلست على شاطىء النهر حزينة كئيبة تخط بعود فى الأرض . وينظر زاديج فيما تخط فإذا هى تكتب اسمه ، فيأخذه الدهش ثم يسألها ، ولا يكاد يسمع صوتها حتى يعرف استارتيه ملكته وصاحبة قلبه ، وقد تبين منها أن زوجها الملك قد قتل فى بعض الحروب وانها وقعت أسيرة فى يد المنتصر مع تلك المرأة المصرية وأنها احتالت حتى نجت من أسرها ذاك ولكنها وقعت فى أسر جديد ، وكلِّفت مع الجوارى أن تبحث عن هذا الحيوان الغريب ، فلم تبحث ولم تحفل لأنها لا تريد أن تكون زوجاً لأحد فقد امتلأ قلبها وعقلها بحب زاديج . فهذه هى المرأة الوحيدة التى عرفت الحب الصادق ووفت له واحتملت فى سبيله ألوان الهول فصبرت وجاهدت واجتهدت ، كما صبر زاديج وجاهد واجتهد ، وأعانتهما المصادفات والخطوب التى لا تعنينا الآن حتى اجتمع شملهما ، فأصبح زاديج ملك بابل وعادت استارتيه إلى عرشها ولكن مع من تحب

هذه نماذج المرأة فى قصة واحدة من قصص فولتير ، وفى هذه النماذج شىء من الشرق ؛ لأن القصة نفسها شرقية قد ترجمت ، فيما يقول فولتير ، لمدام دى يومپادور إلى العربية مع ألف ليلة وليلة ونقلها هو إلى الفرنسية . ولكن هذه

النماذج ليس لها من الشرق إلا ايسر المظاهر . فالنساء اللانى يعرضهن فولتير فى هذه القصة سواء منهن من ذكرنا ومن لم نذكر غربيات السيرة والتفكير يعشن جميعاً فى القرن الثامن عشر الفرنسى . وأكبر الظن أن كل واحدة منهن ترمز من بعيد أو من قريب لامرأة عرفها فولتير أو عرف من أمرها القليل أو الكثير .

على أننا نجد فى كانديد نماذج أخرى للمرأة كلها غربى ، اثنان منها ألمانيان والثالث إيطالى . فأما النموذج الأول لهؤلاء النساء فكونيجوند عشيقة كانديد تلك التى نشأت فى إقليم ألمانى فى بيت متهدم كان الناس يرونه قصراً عظيما ، بين أب سخيف كان الناس يرونه ذكيًا ، وأم بدينة كان الناس يرونها رشيقة ، ومرب أحمق كان الناس يرونه فيلسوفاً . وقد نشأ كانديد فى نفس القصر الذى نشأت فيه كونيجوند ، وقد أحبها وأحبته ، والتقيا ذات يوم فأسقطت كونيجوند منديلها والتقطه كانديد فرده إليها ، ثم التقت الشفاه واضطرمت الأعين واصطكت الركب وصلّت الأيدى ، ومر البارون فى أثناء ذلك فوكز كانديد وطرده من القصر وخرّت كونيجوند مغمى عليها .

ومنذ ذلك الوقت بدأت محنة كانديد ، ووضعت أمامه المسألة الهائلة التى وضعت أمام الانسانية كلها فلم تستطع لها ولن تستطيع لها حلا : أقام أمر العالم على الخير أم قام أمر العالم على الشر ؟ فأما المربى الفيلسوف فقد كان يرى رأى ليبنتز وهو أن ليس فى الإمكان أبدع مما كان ، وأما فولتير فقد كان يشك فى هذا كل الشك ، وقد اتخذ كانديد وكونيجوند والمربى بونجلوس وغيرهم موضوعا للمحن المتتابعة ، يثبت بذلك أن العالم لم يقم على الخير المحض ، وأن الذين يقولون ليس فى الإمكان أبدع مما كان إنما يقولون باطلا من القول وزوراً . وإذا كانت كونيجوند تمتاز بشئ فانما تمتاز بأن شخصيتها سلبية بأدق معانى هذه الكلمة وأوسعها ؛ فهى تحب كانديد لأنها رأت المربى يحب خادماً من خادمات الدار ويُغشى عليها حين ترى أباها يطرد كانديد، وتتلقى اللطمة من أمها حين تفيق من إغمائها ، وتخضع لاستحياء البلغار حين يغيرون على المدينة ، وتخدم ضابطاً بلغاريًا ثم تباع فيشتريها يهودى يحملها إلى لشبونة ، وهناك تصبح شركة بين هذا اليهودى وبين رجل من رجال الدين يرأس محكمة التفتيش . وقد مرت محن أخرى بكانديد انتهت به هو أيضاً إلى لشبونة ، ولكنه فى أثناء هذه المحن الهائلة لم يكن يفكر إلا فى شيئين اثنين : حبه لكونيجوند وإعجابه بأستاذه بونجلوس .

وقد لقى كونيجوند وسعد بهذا اللقاء وسعدت هى أيضاً بهذا اللقاء، واستنقذها من اليهودى والمسيحى وفر بها إلى أمريكا، وأراد أن يتزوجها هناك ولكنها راقت الحاكم الأسبانى فاغتصبها واضطر كانديد إلى الفرار.

وقد طوَّف كانديد فى أمريكا ما طوف، وطوف فى أوربا لذلك ما طوف، لا يفكر إلا فى كونيجوند ولا يحيا إلا لكونيجوند. ثم يلقاها آخر الأمر بعد خطوب كثيرة، وإذا هى قد فقدت جمالها وأصبحت امرأة منهدمة قبيحة المنظر سيئة الخلق، ولكنها على ذلك تعتقد أنها ما زالت فى نضرة الشباب، ولو استطاع كانديد لانصرف عنها. ولكنه رجل شريف فيجب أن يبر بالوعد، وأن يتخذها لنفسه زوجا، فكونيجوند هى صورة المرأة الغافلة التى لا توجد لنفسها ولا تحس وجودها إلا بمقدار.

أما النموذج الآخر فهى هذه العجوز التى لقيها كانديد فى لشبونة خادماً لكونيجوند، وهى امرأة شيخة ضئيلة ضعيفة، ولكنها ذكية ماهرة ماكرة نفاذة من المشكلات مذعنة لأحداث الزمان، قد اكتسبت ذكاءها وإذعانها من المحن التى اختلفت عليها؛ فهى إيطالية قد نشأت نشأة عز وكرامة، ثم اختلفت عليها الخطوب، فأسرها لصوص البحر وحملت إلى مراكش ثم إلى الجزائر ثم إلى تركيا ثم وقعت لهذا اليهودى فاتخذها خادماً لكونيجوند، وأقامت معها تدبر أمرها وتنصح لها حين تبهظها الحوادث وتسليها حين تضيق عليها الحياة.

وأما النموذج الثالث فهى هذه الخادم باكيت تلك الألمانية التى ألقت أول درس فى الحب على كونيجوند، والتى لعبت بها الأحداث هذا اللعب الشائع المعروف فباعت جسمها لتعيش. وما زالت هذه التجارة المنكرة تحملها من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة، حتى ضمها كانديد إلى كونيجوند حين انتهى به وبأصحابه المطاف إلى حديقته تلك التى فرغ للعناية بها على ساحل البحر الأسود.

على أن قصة كانديد لم تخل من نموذج فرنسى باريسى ولكنه بالطبع نموذج سيئ ردىء؛ فليس فى هذه القصة أو لا يكاد يكون فيها إلا ما هو سيئ ردىء. وهذا النموذج الفرنسى الباريسى هو هذه المرأة التى اتخذت لنفسها لقباً أرستقراطيًّا وأقامت فى الحى الأرستقراطى، ولكنها فى حقيقة الأمر مضطربة بين طبقة الأشراف وطبقة السوقة: فهى تستقبل أخلاطاً من الناس فيهم النقى الممتاز، وفيهم الدنس المريب، فيهم الجاهل المغرور، وفيهم العالم المتواضع،

وهم يجتمعون إلى مائدتها ، فيطعمون ويشربون ويلعبون ، ويقيمون حياتهم على ما يفيدون من هذا اللعب كما تقيم هى حياتها على ما تفيد من هذا الاستقبال . وآية ذلك أن كانديد لم يكد يدخل دارها حتى أجلس إلى مائدة اللعب فخسر مبلغاً ضخماً ، ثم استمع لألوان من الأدب والنقد ، ثم دعى إلى الغرفة الخاصة ، وهناك مكرت به هذه السيدة مكراً يكاد يخلو حتى من الرفق ، ولم يخرج كانديد من هذه الدار حتى فقد وفاءه لـكونيجوند ، وفقد مع هذا الوفاء خاتماً ثميناً ، وكره باريس وفكر فى الفرار منها إلى البندقية .

وقصة أخرى من قصص ڤولتير تعرض علينا من المرأة نماذج أخرى تخالف هذه النماذج التى رأيناها ، وهذه القصة هى قصه البرىء — L'ingénu — ونماذجها كلها فرنسية لأن القصة تبدأ فى بريتانيا السفلى وتنتهى فى باريس ، وهى هجاء لرجال الدين والليسوعيين منهم خاصة . فالبيئة إذاً بيئة قسس ، ونحن نجد فى أول القصة قسيسين ، يعيش كل منهما مع اخته . فأما أحدهما كركابون فأخته قد تقدمت بها السن حتى استيأست من الزواج على كره منها لذلك شديد . وأما الآخر سانت إيف فأخته فى نضرة الشباب تبسم لها الحياة وتبسم هى للحياة . وفى ذات يوم أقبلت سفينة انجليزية ، فألقت مراسيها ونزل أصحابها فباعوا واشتروا ، ونزل معهم فتى غريب الأطوار ، ساذج إلى أقصى حدود السذاجة ، ظريف إلى أبعد غايات الظرف ، جميل الطلعة ، رائع المنظر ، حسن الموقع من القلوب ، ولم يكد يتصل بالقس كركابون وأخته حتى أحبهما وأحباه ، ثم استكشفا بعد خطوب كثيرة أنه ابن أخ لهما كان قد ذهب محارباً إلى كندا ثم انقطعت أخباره وأخبار امرأته ، وأكبر الظن أنهما قُتلا وتركا هذا الصبى فنشئ فى بيئة غير متحضرة ، وأقبل وقد بلغ الرشد ، ولـكنه ما زال على فطرته الأولى . وقد أقام إذاً مع عمه وعمته ، وأحبه أهل القرية حبًّا شديداً ، وجعل عمه يثقفه الثقافة المسيحية حتى استطاع أن يعمِّده فى حفل عظيم . وقد فُتن بالآنسة سانت إيف كما فتنت هى به ، وعاقت عوائق دون زواجهما ، فهو يكلف عمّيه عناء عظيما ليحقق هذا الزواج . وإنه لفى ذلك وإذا الأسطول الإنجليزى يقبل مغيراً على الإقليم ، ويبلى الفتى فى رد هذا الأسطول بلاء حسناً ، يزيد إعجاب الناس به وإكبارهم له . فيرسله عمه إلى ڤرسايل ومعه الشهادة بحسن بلائه ليقدم هناك إلى وزير الحرب ، ويظفر من الملك بالمكافأة على ما أبلى فى الدفاع عن الوطن ،

ولعله أن يضم إلى الجيش . ولكنه يصل إلى فرساي ولا يكاد يتصل بوزارة الحرب حتى يكون الكيد قد سبقه إلى القصر فيقبض عليه ويرسل إلى سجن الباستيل ، ويلقى فى حجرة من حجراته مع رجل تقى عالم من رجال الدين فلندعه فى سجنه يتعلم على هذا القس ، ويقرأ ما شاء الله له أن يقرأ من الكتب فى فنون العلم والأدب والفلسفة ، ولنعد إلى الآنسة سانت إيف .

فقد طالت غيبة البرىء على أهل القرية وانقطعت عنهم أخباره فصبروا وأجملوا الصبر ، وانتظروا وأطالوا الانتظار ، فلما كاد اليأس يبلغ منهم ، سافر عمه وعمته إلى باريس ليتحسسا من هذا الفتى الضائع أو المضاع . وكذلك فعلت الآنسة فخرجت مستخفية من القرية وسلكت طرقاً ملتوية حتى انتهت إلى فرساي وأخوها وآخرون من أهل القرية فى أثرها ، يريدون أن يردوها إلى القرية . ولكنها سبقتهم وانتهت إلى القصر ، وابتغت وسائلها من رجال الدين وغير رجال الدين حتى علمت أن حبيبها فى السجن ، فجدّت فى إنقاذه مفتنة فى الجد حتى انتهت إلى رجل خطير من رجال وزارة الحرب . ولم تكد تقص عليه أمرها حتى رق لها وعطف عليها ، ولكنه فتن بها فتنة شديدة ، وإذا هو يساومها فى إطلاق حبيبها من السجن مساومة منكرة ، وإذا الفتاة بين أمرين احلاهما مر : فإما ان تحرص على الشرف فتفقد حبيبها إلى آخر الدهر وتعرضه للعذاب المقيم فى أعماق السجن ، وإما أن تبذل هذا الشرف فتخسر نفسها أولا ، وتخون حبيبها ثانياً . ولكن الموظف الخطير يساوم ويغلو فى المساومة ويطمع ويسرف فى الإطماع ، والفتاة مضطربة أشد الاضطراب ، مترددة أشد التردد بين الشرف والهوان ، وبين الوفاء والخيانة . وقد عادت إلى الدار التى أوت إليها وعرضت قصتها على صاحبة الدار وهى سيدة وجيهة ، فرفقت بها السيدة وعطفت عليها ولم ترد أن تشير عليها أول الأمر ، وإنما نصحت لها بأن تستشير قسيساً يسوعيًّا . وقد عرضت أمرها على القسيس ، فسخط على الموظف الكبير أشد السخط ، ولكنه لم يكد يعرف اسمه حتى أظهر حزناً ثم تردداً ، ثم جعل يعزى ولا يغرى ، ويرغّب ولا يرغب ، ولكنه أطمع الفتاة فى المغفرة آخر الأمر ، وضرب لها المثل بما امتُحن به بعض القديسات فى الزمان القديم . وعادت الفتاة إلى ام مثواها يائسة بائسة . ولكن هذه السيدة الوجيهة اجترأت آخر الأمر وشجعت الفتاة تصريحاً على ما شجعها عليه القس تلميحاً ، وبينت لها أن الأمور لا تقضى

فى فرساي إلا بمثل هذا الثمن البشع الشنيع . وقد زلت الفتاة آخر الأمر وظفرت بحرية حبيبها وبحرية رفيقه فى السجن ، بل ظفرت لحبيبها بالمكافأة والمنصب والمستقبل السعيد . واجتمع المتفرقون كلهم ، ورضى بعضهم عن بعض إلا هذه الفتاة فلم تكن راضية عن نفسها ، ولم تكن ترى نفسها خليقة بهذا الفتى البرىء الكريم ، ولكنها أنجته من السجن آخر الأمر ، وكان من الممكن أن تجتهد فى كتمان خطيئتها وأن تستأنف حياة نقية سعيدة لولا أن الدهر لم يرد لها حتى هذه الحياة النادمة ؛ فقد أحبها الموظف الخطير ، ولم يقنع منها بما أعطته وإنما أراد أن يستزيد ، فأرسل إليها الرسل والهدايا ، وكاد القوم أن يفطنوا ، وأحست هى أن أمرها قد افتضح ، فأخذتها العلة ، ولم تكد تأوى إلى سريرها حتى أخذتها الحمى ، ثم اشتد عليها المرض واستيقنت الموت فاعترفت لحبيبها ولأخيها بخطيئتها . وماتت ضحية للحب إن شئت ، وللوفاء إن أحببت ، وللندم على فقدان الشرف إن أردت ، ولهذا كله ولفساد الحياة الاجتماعية كما أراد فولتير . فهذا النموذج الرائع يكاد ينفرد بين نماذج المرأة فى قصص فولتير كلها . فالفتاة هنا عاملة لا مستسلمة ، وجريئة نشيطة لا تعرف ضعفاً ولا فتوراً ، ومصممة لا تعرف تردداً ولا نكولا ، ومغامرة لا تخاف الحوادث ولا تهاب الخطوب . ثم هى بعد ذلك شريفة وفيّه ، سقطت بين الشرف والوفاء ، وأدت حياتها ثمناً لهذه السقطة ، وأنقذت بعد ذلك رجلين كريمين من عذاب متصل مقيم .

وفى هذه القصة نموذجان آخران من نماذج المرأة الفرنسية كما صورها فولتير : أحدهما هذه الآنسة كركابون شقيقة القس وعمة البرىء تلك التى تقدمت بها السن وأكرهت على حياة فيها كثير جداً من الخشونة والضيق ، وحُرمت لذة الزواج ولذة الأمومة فقبلت هذا الحرمان راضية كارهة ، إن صح هذا التعبير . راضية لأنها لم تثر ولم تصطنع الحيلة ، لتظفر بما حُرم عليها ، ولم تتورط فى الخطيئة لا عن عمد ولا عن غفلة ، وإنما احتفظت بالطهر والنقاء . وكارهة لأنها لم تر الشباب إلا ذكرت شبابها الضائع ، ولم تسمع ذكر الحب والزواج إلا أسفت فى تجمل لأنها لم تأخذ بحظها منهما . ولم تكد ترى الفتى البرىء حتى غمرته بما كان مكظوماً فى قلبها من عواطف الأمومة . والنموذج الآخر هو هذه السيدة الباريسية الوجيهة التى آوت الآنسة سانت إيف ، والتى لم تجرؤ على أن تشير عليها

إلا بعد أن أشار القسيس . ثم تشجعت فنصحت للفتاة بأن تقبل الحياة كما هى وبأن تسير سيرة غيرها من النساء حين يحتجن إلى الاتصال بأصحاب الجاه . هذه السيدة تصور المرأة العملية فى الحياة الفرنسية العامة أثناء القرن الثامن عشر ، فهى لا تتهالك على الإثم راغبة فيه ، ولكنها مع ذلك لا تتحرج من الإثم حين تدعو إليه المنفعة . وهى على ذلك تحتفظ بما ينبغى للمرأة الكريمة من مظاهر الوقار والارتفاع عن الدنيات .

وكذلك نرى ڤولتير فى هذه القصة يعطينا صوراً ثلاثاً من المرأة : فأما إحداها فهى هذه الفتاة التى تصلح موضوعاً لمأساة رائعة . وأما الأخريان فهما هاتان المرأتان اللتان يلقاهما الناس فى الحياة الواقعة إحداهما كريمة لأنها قنعت بما قسم لها من الحياة ، والأخرى متكرمة لأنها خضعت لما فى الحياة من ضرورات .

وما دمنا نتحدث عن هذه النماذج الفرنسية فلنمض فى الحديث عن نماذج فرنسية أخرى التمسها ڤولتير فى أعماق إيران وفى أعماق التاريخ القديم ؛ فقد ارتفعت الشكوى إلى السماء من هذا الفساد العظيم الذى ملأ مدينة برسيبوليس وأمر ملك من الملائكة عوناً من أعوانه أن يذهب إلى هذه المدينة لستقصى أمرها ، ويرفع إليه تقريراً عنها ، فإن كان الفساد أغلب عليها من الصلاح دمّرها تدميراً ، وإن كان الصلاح أدنى إليها من الفساد خلى بينها وبين البقاء .

وقد ذهب هذا العون إلى المدينة فاختبر أمرها كله ، فكان يسخط أحياناً حتى يرى فيما بينه وبين نفسه أن هذه المدينة يجب أن تمحق محقاً ، وكان يرضى أحياناً أخرى فيرى أن هذه المدينة يجب أن تستمتع بالبقاء . وواضح جداً أن مدينة برسيبوليس هى فى أكبر الظن باريس . فأكثر عيوبها وأكثر محاسنها هى الخصال التى كانت باريس تمتاز بها ، بل التى كانت فرنسا كلها تمتاز بها فى عصر ڤولتير . وقد عرض علينا ڤولتير فيما عرض من شؤون هذه المدينة ، شؤون السيدات الحسان اللاتى كن يستقبلن فى دورهن ، ويذهبن إلى الملاهى والمسارح ، ويختلفن إلى المعابد والحدائق والمتنزهات ، ويجمعن إلى جمال الخلق وحسن الشارة والبراعة فى الزينة رقة القلب وعذوبة الحديث ودقة الإحساس والتسامح فيما يتصل بالسيرة والأخلاق ، ويظفرن مع ذلك بسماحة الأزواج وتلطفهم وإغضائهم حين يحسن الاغضاء . وربما كان أصدق تصوير لهؤلاء

النساء قول إحداهن لهذا العون ، وقد أظهر الخوف والجزع حين رآها تسرف فى خيانة زوجها : إنى لا أحب أحداً كما أحب زوجى ، وإنه لايحب أحداً كما يحبنى ، وإنى أضحى فى سبيله بكل شىء إلا بخليلى ، وإنه يضحى فى سبيلى بكل شىء إلا بخليلته . وأظنك قد عرفت أنى أشير إلى تلك القصة الرائعة التى سماها ڤولتير الدنيا على علاتها — Le monde comme il va — على أن هذه النماذج من المرأة الباريسية لم تصور فى هذه القصة وحدها ، وإنما صورت فى قصة زاديج ، فالبابليات اللاتى يختلفن على القصر ويحاصرن مكتب الوزير ، ويتناجين ويتناغين ويتساعين بالكيد والنميمة فيما يتبادلن من زيارات لسن فى حقيقة الأمر إلا نساء الطبقة الممتازة فى باريس وفى عواصم الأقاليم .

وأريد الآن أن أعود إلى أميرة بابل تلك التى تركتها تجوب أقطار الأرض ساعية فى أثر عاشقها ذاك الجميل . فقد صورت بعض شخصيتها ولم أصور بعضها الآخر ؛ لأنى كنت أتحدث عن هذه القصة أثناء العرض العام لمذهب ڤولتير فى القصص . وأحب الآن أن أصور لك هذه الفتاة كما عرضها علينا ڤولتير ، فهى محبة صادقة الحب ، جريئة بعيدة الجراءة ، مغامرة شديدة المغامرة ، تشبه فى ذلك الآنسة سانت إيف فى قصة البرىء ، ولكنها أميرة سيؤول إليها ملك عظيم هو ملك بابل ، فقد نشئت إذاً كما ينشأ الأميرات ، فيها إترافهن وما يستتبعه الإتراف من الرقة واللين ، ومن الضعف والفتور ، ولكن فيها مع ذلك طموح ساذج إلى إرضاء هذا الحب الذى ألقاه الفتى فى قلبها . وهى تريد أن ترضى هذا الحب لأنها تعودت أن ترضى كل حاجاتها ، وأن تبلغ كل ما تريد . ولكنها على ذلك مترددة ما دامت فى ظل أبيها الملك ، وما دامت خاضعة لنظم القصر وتقاليده ، فكل خصالها كامنة فى قلبها كما تكمن النار فى العود أو كما يكمن الرحيق فى العنقود ، فيما يقول ابن الرومى . فإذا أذن لها الملك فى الحج إلى معبد البصرة ، وإذا خرجت من المدينة ومعها طائرها ظهرت هذه الخصال كلها ، وإذا الفتاة محبة لا تعرف إلا الحب ، عاشقة لا تعرف إلا العشق ، مفتونة لا تفكر إلا فى صاحبها ، وفى أن من حقها ومن الحق عليها أن تراه . ولكن الظروف لا تواتيها ، وإنما تخلق لها مشكلة يسيرة غريبة فى وقت واحد ، وهذه المشكلة هى التى ستدور عليها القصة كلها .

فقد انصرف الملوك من بابل مغضبين . فأما فرعون وملك الهند فقد تحالفا

وتم الاتفـاق بينهما على أن يعودا إلى بابل غازيين كلاهما يقود جيشاً قوامه ثلاث مئة ألف من الجند ، حتى إذا تم لهما النصر اقترعا أيهما يظفر بالأميرة . وأما ملك السيتيين فقد اختطف ابنة عم الأميرة ومضى بهـا تحت الليل إلى مملـكته فاتخذها لنفسه زوجاً وأزمع أن يعود إلى بابل غازيا ليرد إلى زوجه عرش بابل الذى غصب منها غصباً . وكذلك أراد ملك بابل أن يزوج ابنته الأميرة فورموزنت فجرّ على نفسه وعلى ملـكه شرًّا مستطيراً . وقد مضت الأميرة فورموزنت مع طائرها ونزلت فى طريقها إلى البصرة بفندق من الفنادق ، وإذا فرعون قد نزل فى هذا الفندق نفسه ، وإذا هو يتعجل الفور وينتهز الفرصة ويدخل على الأميرة فى غرفتها فيعلن إليها فى صلف وغلظة أنها قد أهانته فى قصر أبيها وأنه قد ظفر بها الآن فسينزلها على حكمه وسيكرهها على أن تشهد معه مائدة الغداء . وهنا تظهر مهارة الأميرة وسعة حيلتها ، فتظهر لفرعون أنها لم تحب أحداً غيره ، وأن الحياء والخوف هما اللذان منعاها من إظهار حبها ، وأنها حين تقبل دعوة الملك إلى الغداء لا تنزل على حكمه وإنما تنزل على حكم الحب الذى ملأ قلبها فتونا . وهى بهذا الحديث قد فتنت فرعون وأنزلته هو على حكمها . وقد اتفقت معه على الغداء ورغبت إليه فى أن يمنحها ساعة أو ساعتين لتصلح من شأنها استعداداً لهذه السعادة . ولم تـكد تخلو إلى نفسها حتى دعت وصيفتها وطبيبها وتقدمت إليهما فى أن يسقيا الملك وأعوانه وجنده إذا كان الغداء من نبيذ شيراز على أن يدسا فى هذا النبيذ مخدراً يدعو إلى النوم فلا يردّ النوم له دعاء . ولم يكد القوم يمضون فى غدائهم وفرعون يداعب الأميرة حتى كانوا قد شربوا فأسرفوا فى الشرب ، وحتى كان نبيذ شيراز قد أغرقهم وأغرق الجند معهم فى نوم عميق . هنالك انسلت الفتاة وحاشيتها ، ولـكنها لم تمض إلى البصرة لتنفذ أمر أبيها فقد نسيت أباها وأمره والبصرة ، وإنما مضت إلى أقصى الهند لتلتمس عشيقها أمازان . وقد بلغت أقصى الهند ، ولـكنها لم تلق الفتى وإنما لقيت أمه محزونة بائسة ، وعرفت منها أن طائراً ماكراً قد شهد غداءها مع فرعون وأنبأ به الأمير فرآه خيانة بغّضت إليه الحياة فأزمع أن يطوف فى أقطار الأرض يلتمس العزاء عن حب هذه الخائنة ، وشرط على نفسه أن يكون وفيًّا لهذه الخائنة إلى آخر الدهر . وكذلك نشأت العقدة ، فالفتاة بريئة أمام نفسها وأمام الحق ، ولـكنها خائنة فى رأى حبيبها . وهى تريد أن تطلبه حيثما كان لتظهره على براءتها

من هذه الخيانة ولتستأنف معه هـذا الحب السعيد . وقد تبعته إلى الصين فعرفت أنه أقام فى قصر الملك أياما ، وكاد يطيل الاقامة لولا أن أميرة من أهل القصر فتنت به وراودته عن نفسه فأبى عليها وفر منها وترك لها كتابا رقيقاً يعتذر فيه من هذه الغلظة لأنه يحب أميرة بابل وقد أقسم أن يظل وفيـًّا لها إلى آخر الدهر . فلا تـكاد الأميرة تقرأ هذا الـكتاب حتى يجن جنونها وحتى تلاحق حبيبها فى كل مكان . وهى لا تصل إلى مدينة إلا عرفت أن الفتى قد تركها رافضاً حبـًّا يعرض عليه حتى طوفت فى أثره أوربا كلها وكادت تلحقه فى انجلترا ، ولـكنه عاد فى الوقت الذى كانت تعبر فيه البحر من هولندا إلى بلاد الانجليز .

على أنها أدركته آخر الأمر فى باريس ، ولـكنها أدركته على شر حال . فهذا الفتى المتيم الذى قاوم الأميرات فى جميع قصور الأرض لم يستطع أن يقاوم باريسية ، وأى باريسية ؟ ممثلة من ممثلات الأوبرا . رأى تمثيلها وسمع غناءها وأحب أن يتقدم إليها . فلما عرفها وقع فى الشرك . وتأتى أميرة بابل فترى هذا الفتى وهذه الممثلة على شر حال . وقد ضاعت الآمال وانهارت قصور الأمانى واشتعلت الغيرة حتى حرّقت قلب الفتـاة وعقلها تحريقاً ، فهى تهجر باريس مصممة ألا ترى هذا الخائن ! وهى تذكر أباها الآن وتذكر أنها خالفت عن أمره وتريد أن تعود إليه وتعتذر وتتوب وتثوب إلى الطاعة والخضوع ، وتتعزى عن هذا الحب الذى جابت من أجله الدنيا كلها ثم آبت منه بالخيبة والحرمان . والفتى فى أثرها يطلبها بعد أن كانت تطلبه ، ويلاحقها بعد أن كانت تلاحقه . وقد أدركها آخر الأمر فى أسبانيا وأنقذها من محكمة التفتيش ، فكفر بذلك عن خطيئته وعادا معاً إلى بابل ، وكان الزواج وارتقى إلى العرش فى خطوب لست فى حاجة إلى تفصيلها . وبمقدار ماترى عند هذه الفتاة من الإقدام والعزم ومن الجراءة والمغامرة ترى عند أميرة أخرى مصرية ما يناقض كل هذه الخصال بحيث لا تشبه إحدى الأميرتين صاحبتها إلا فى شئ واحد هو هذا الحب الملح الذى يضطر صاحبته إلى الصبر والوفاء واحتمال الخطوب . ولـكن الأميرة المصرية صابرة وفية لا تصنع شيئاً وإنما تتلقى ما يصبّ عليها من المحن فى سبيل هذا الحب . وأنت تستطيع أن ترى صبر هذه الأميرة وشجاعتها السلبية وتعرضها للموت فى قصة الثور الأبيض .

وأعتقد أنى قد عرضت عليك من نماذج المرأة عند ڤولتير ألواناً تعطيك منها صوراً واضحة دقيقة . وأنا لم أعرض عليك مع ذلك نماذج أخرى أهملتها عن عمد لأنها تشبه هذه النماذج التى عرضتها من قريب أو بعيد .

وهناك أسئلة يمكن أن تخطر للذين يقرءون قصص ڤولتير وللذين يقرءون هذا الحديث : فهل بين هـذه النماذج كلها وبين السيدات اللاتى اتصل بهن ڤولتير اتصال حب أو اتصال مجون من علاقة بحيث يمكن أن نستدل بهذا النموذج أو ذاك على هذه السيدة أو تلك من صواحبات ڤولتير ؟ وهل هناك صلة بين هذه النماذج وبين السيدات الكثيرات اللاتى عرفهن ڤولتير فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وسويسرا وإيطاليا بحيث يستطيع الباحث أن يقول إن ڤولتير قد صور هذه السيدة أو تلك من السيدات الممتازات اللاتى عرفهن فى حياته المضطربة الطويلة ؟ وهل بين ألوان الحب التى عرضها ڤولتير فى قصصه هـذه ما يشبه من قريب أو بعيد حب ڤولتير حين كان يحب وهيام ڤولتير حين كان يهيم واضطراب ڤولتير بين اليأس والرجاء حين كان يضطرب فى الحب بين اليأس والرجاء ؟

أسئلة لا أستطيع أن أجيب عليها ولا أريد أن أجيب عليها ؛ لأنى لست إخصائيًّا فى أدب ڤولتير ، بل لست إخصائيًّا فى الأدب الفرنسى ، ولأنى لم أرد أن أقدم إليك بحثاً فى التاريخ الأدبى وإنما أردت أن أقدم إليك حديثاً من هذه الأحاديث التى تدعو إلى التفكير وترغب فى القراءة . وإذا كنت قد وفقت فى هذا الحديث إلى أن أرغِّبك فى قراءة هذا القصص الرائع الذى تركه لنا ڤولتير وفى تعمق البحث عن صور المرأة فى هذا القصص فأنا راض كل الرضا إلا عن شيئين اثنين : أحدهما أنى لم أحسن البحث والاستقصاء . والثانى أنى كنت أريد الإيجاز فاضطررت إلى الإطالة فأثقلت بذلك على القارئ وعلى المجلة ، وشجعت بذلك الكتاب على أن يرسلوا إلينا فصولا طوالا كهذا الفصل الطويل . وأى بأس على الكتّاب إذا ذهبوا فى الثرثرة مذهب رئيس التحرير .

طه حسين